البابُ الأولُ

إشكالياتُ الواقع العربي
في الطرح الشعري المعاصر
لشعراء الباحة

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

تأزُّم وضعية المجتمع العربي المعاصر في الرؤية الشعرية

- إن علاقة الشاعر بالواقع علاقة حتمية لا مناص منها، ولا تتوقف على المدرسة الشعرية أو المذهب الشعري الذي يتبعه الشاعر، ولا ترتهنُ بانتماءاته الأيديولوجية ـ أو غيرها ـ فعلاقة الشاعر بالواقع وانشغاله به حتمية حياتية، يوجبُها وجودُه في جنبات هذا الواقع؛ فهو متأثر ومنفعل به ـ في حالتَي الرفض أو القبول لهذا الواقع ـ ثائر عليه متمرد أو منسجم معه. هذه مواقف داخلية ـ فكرية ونفسية ـ تحدث تلقائيًا أثناء احتكاك الشاعر بالواقع ـ فعلًا ورد فعل ـ فالشاعر إنسان منغرس في قلب مجتمعه، له متطلباته البشرية والإنسانية التي يسعى لإشباعها، ويكون توافقه مع الواقع أو توتره معه حسب درجة الإشباع التي تحققها نوازعه البشرية والإنسانية.
- فضلًا عن هذا، فإنَّ الشاعر يفوق الإنسان العادي باحتياجه إلى متطلبات أخرى تختلف ـ في النوع والدرجة ـ عما يتطلبه الإنسان العادي، وهي متطلبات روحية وفكرية محضة، فالشاعر لا يُشبعُ من خلالِ

غرائزه المادية ـ وحدها ـ ولا يرضيه التحقق المادي ـ وحده ـ بل يحتاجُ إلى أن يتمثل في محيطه الاجتماعي ـ وفي مطلق الوجود ـ معاني الخير والعدل والسلام والجمال والحق والحب، في درجاتها المطلقة، وبما يُوجد وجودًا نقيًا مثاليًا فوقَ أرضيٍّ.

- هذه العلاقة الحتمية ـ الطبيعية ـ بين الشاعر والواقع ـ تفرض علينا أن نسجل هنا بعض المرئيات ـ التي تستحقُ أن تكون في رتبة الحقائق والمسلمات ـ ونسميها مرئيات توخيًا لمقتضيات الدراسة وحرصًا على أن يكون الطرح موضوعيًا فيه فسحة للحوار والنقاش ـ هذه المرئيات هي:

- **أولاً**: علاقة الشاعر بالواقع علاقة قائمة؛ بما لا يحتاج إلى مذهبة اتجاه الشاعر أو إلى تصنيف مدرسته الشعرية ـ وفق هذه العلاقة ـ وبما لا يحتاج إلى تصنيف الشعراء ما بين ملتزم بقضايا الواقع وغير ملتزم، فمبدأُ الالتزام قائمٌ، والتَّماس بين الشاعر والواقع موجود مُمارس عبرَ جميع مذاهب الشعر، ومدارسه المختلفة، بل إنَّه مُمارسٌ في أكثر هذه المذاهب وهذه المدارس تطرفًا في ادعاءِ الانفصال عن الواقع والعلو عليه ـ كالبرناسية ـ أو أكثرها انحصارًا في ذات الشاعر ـ كالرومانسية ـ أو اتصالًا بشريحة بعينها من المتلقين ـ كالكلاسيكية ـ ممَّا هو معروف مُتداول ـ وصولًا إلى الحداثة التي تطرفت في إقصاء المتلقي بإعتامها وغموض

خطابها الشعري، وانحصار غايتها في التخطي والتجاوز الزمني والدلالي للقديم؛ حتى صارت تدعو إلى تجاوز ذاتها، والقفز على أزمتها خوفًا من الوقوع في التقليد والماضي وفخ الزمنية. إن الشاعر ـ عبر كل هذه المدارس وهذه المذاهب منغرس في الواقع ولكن بصور متباينة وألوان شتى من الطرح والمعالجة الفنية بين الوضوح والغموض، بين المباشرة والدلالات المستترة؛ فالتجربة الإنسانية «هي موضوع الشعر بأسره، ولهذا فإن غايته يجب أن تكون أيضًا الإنسانية جمعاء»[1].

ثانيًا: علاقة الشاعر بالواقع علاقة توتر دائم وتماسٌّ إشكالي لا يصل ـ ولن يصل ـ إلى المصالحة؛ لأن الواقع البشري الإنساني قوامه النقص والتأزم والمعاناة والاضطراب، والشاعر ينشد المثالي من النقص ويرجو السلام والسكينة من واقع متأزم مضطرب، وينتظر ـ ويأمل ـ الخير والحق والجمال من المجتمع البشري المجبول على التدافع والعداوة ـ والأحقاد والصراعات والأطماع ـ ومن هنا لا يتصالح شاعر مع واقعه ـ ولن يتصالح ـ ولن يمتدح ـ شاعرٌ واقعه، ولن يرضى به سكنًا ومصيرًا. هذا التأزم في علاقة الشاعر بالواقع تأزم إيجابي خلاق، من شأنه أن يملأ التجربة بالتوتر والقلق

(1) أرشيبالد مكليش: **الشعر والتجربة**. ترجمة سلمى خضراء الجيوسي. ص124.

الفكري والروحي الذي نرى فيه الواقع والوجود الإنسانيين في حقيقتهما ـ الشعرية ـ بعين شاعرة تهفو إلى اليوتوبيا، ولا تنفك تقيس الواقع بالمثال والمدينة الفاضلة، ومن ثم لا تنفك ترفض واقعها وتكاشفه بنقصه وتحرضه على التمام، في إلحاح لا يتوقف، وعذاب إبداعي لا يشبهه في القوة والمثابرة والجلد إلا قوة الواقع المُمعن في القبح والنقص والانهيارات. هذه هي رسالة الشعر الحقَّة، هذا هو الالتزام في معناه العميق، لا معناه السطحي المُنحصر في عملية الرصد الآلي لمتغيرات الواقع.

هذا التأزم الخلاق هو رسالة الشعر ورسالة الفن الحقيقية «إن الفن هو فعل الانفصال بالذات الإنسانية عن باقي عناصر الحياة والطبيعة؛ لأنه فعل إعادة التشكيل وتجريد الخلق، والقفز على نسيج الرتابة القاتلة إلى توقيع جديد يفصل بين حركة الطبيعة وطبيعة الطبيعة، وبين حركة الفعل الإبداعي وطبيعته باعتباره إعادة إنشاء وإعادة خلق وصياغة جمالية للكائن أو الشيء أو الظاهرة أو الفكرة»[1] ولعل هذا التشكيل الجديد، والتخليق الفني هو ما يحرض الشاعر ـ والفنان عمومًا ـ على المزيد من الانغراس في الواقع والمزيد من التَّماس المتوتر معه.

ثالثًا: علاقة الشاعر بالواقع علاقة أزلية، لكن درجة

(1) **العلاقة بين الفن التشكيلي والشعر** ـ كلود عبيد / ص9.

وعي الشاعر بواقعه وإدراكه طبيعة هذا الواقع ـ ومتطلباته وأدواته ـ تزداد وتطَّرد مع تطور القصيدة العربية، وصولًا إلى مرحلتها المعاصرة، حيث صارت القصيدة شهادةً على عصرها ـ بالمعنى الرؤيوي لا بالمعنى الوثائقي ـ صارت ثبتًا رؤيويًا، وشهادة وعي ترصد وضعية المجتمع العربي ـ والإنساني ـ وترصد شهادة الشاعر الفكرية والنفسية، وتصوِّر التَّماس المأسوي بين الواقع والإنسان «إن مفهوم القصيدة قد تغير، فلم تعد عملًا إضافيًا للإنسان يزجي به أوقات فراغه أو يمارس فيه هوايته، وإنما صارت عملًا صميمًا شاقًا يحتشد له الشاعر بكل كيانه. صارت القصيدة تشكيلًا جديدًا للوجود الإنساني ومزيجا معقدًا من آفاق هذا الوجود المختلفة، أو لنقل ـ بإيجاز ـ إنها صارت بنية درامية»[1].

رابعًا: الواقع العربي «واقع» إشكالي، والأرض العربية ـ بالمعنى الجغرافي والتاريخي والسياسي ـ أرض مضطربة متوترة غير مستقرة طوال تاريخها الحديث والمعاصر. هذه الأرض رُزِقت من الأزمات على قدر ما رُزقت من الخيرات والثروات؛ تتناهبها الأمم اغتصابًا ـ أو تهديدًا بالاغتصاب ـ وتتربص بها المؤامرات، وبث الفتنة وزعزعة الأمن. هذه الوضعية لا يستطيع الشاعر تجاهلها، ولا يستطيع الناقد أن يتجاهل تصوُّرَ الشاعر

(1) د. عز الدين اسماعيل: **الشعر العربي المعاصر**. ص241.

لها؛ فهي ليست حدث اليوم، بل حدث الأمس واليوم والغد، يطّرد وينمو في تأزمه وقلقه؛ بما يجعل ـ هذه الوضعية ـ بطلَ التجربة الشعرية العربية المعاصرة، ويجعلها ـ من ثم ـ على رأس اهتمامات الناقد في متابعة هذا الشعر ورصد تحولاته الرؤيوية والفنية.

القصيدة السعودية المعاصرة ـ عمومًا ـ وقصيدة شعراء الباحة خصوصًا ـ من حيث هي موضع هذه الدراسة ـ جزءٌ من خريطة الشعر العربي المعاصر وجزء من شهادات الشعر على الواقع العربي؛ بما تقدمه من رؤى فكرية وفنية تتبعُ الوضعية العامة للقصيدة العربية المعاصرة. كما تستقل هذه القصيدة ببعض زوايا الطرح والرؤى والمعالجة الفنية ـ بحكم استقلال المجتمع السعودي بشخصانية لها رؤاها وثقافتها وطبيعتها ـ ومن خلالِ هذا الاتصال، والانفصال عن عموم القصيدة العربية، يستطيعُ الناقدُ أن يستبطنَ كيفية تصور شعراء الباحة لمشكلات الوضعية العربية الراهنة باعتبارهم نموذجًا للقصيدة السعودية المعاصرة.

- يطرح الشاعر ـ الدكتور ـ صالح سعيد الزهراني خريطة الأمة العربية لكنها ليست خريطة مواقع جغرافية، بل خريطة أحزان وانهيارات، خريطة ترصدُ موقع الأمة ـ زمنيًّا ـ بدءًا من ماضيها وصولًا إلى حاضرها، وتصوّر موقعها بمقارنتها بمثيلاتها من الأمم، إنها خريطةٌ شعريةٌ تبرزُ موقع الأمة من القوة والانجاز والمجد، وموقعها

من حيث الحزن والألم والهزائم، وهكذا يطرح الشاعرُ التضاريس الشعرية لملامح أمته، وهي تضاريسُ لا تبدو فيها الثروات بل تبدو العثرات؛ بما دفع الشاعرَ إلى أن يضع للقصيدة عنوانَ «أحزان جديدة»[1]. يقول فيها:

أرى أوجهًا لا لونَ فيها، خرائطًا
تضاريسُها جدبٌ، وصمتٌ مُغَلَّفُ
أرى أمَّة حَيرى، رؤاها كئيبةٌ
ومقلتُها بيضاءُ، والوجهُ أعجفُ
أخي: حين أحدو العيسَ للسير، ينثني
كئيبًا، ينادي: أوقفوا العيسَ أوقفوا
فأبصرُ قاماتِ المطايا ذليلةً
يُقيدها عن مبلغ القصد مُرْجِفُ

- وفي طرح آخر، وفي قصيدته «وجوه وحقائب بدوية»[2] يصوّرُ صالح سعيد الزهراني ملامح الوجوه العربية موالًا حزينًا، ويجعل متاعها في حقائبها همومًا وهزائم، فحقائب العرب أحزان ودماء شهداء، وكينونة حائرة. يقول:

«جئناك يا مولاي موالاً حزينا

(1) الشاعر الدكتور صالح سعيد الزهراني: ديوان حارس الكلأ المباح/ **الأعمال الشعرية الكاملة** / 26.

(2) د. صالح سعيد الزهراني: ديوان تراتيل حارس الكلإ المُباح. **الأعمال الشعرية**. ص 141.

فتش حقائبنا، وقل ماذا لدينا
ماذا نجني في محاجرنا، ونحمل في يدينا
فتش تجد سيفًا دمشقيًا وزيتونًا وتينا
فتِّش تجد حزن العراق، دم الجليل «رمال سينا»
فتشْ تجد أنا نحاول أن نكونا»

- ويطرح الشاعر حسن حمد حسن الزهراني الوجع العربي والإسلامي باعتباره همه الأول، ومواجع شعره، ويعدد مآسي المسلمين وهزائمهم، بدءًا من استلاب القدس وصولًا إلى هزائمنا الحالية؛ وبذلك يطرحُ استلاب القدس فاتحة لهذه الهزائم، ومنبعَ ضياع الهوية الإسلامية. يقول الشاعرُ[1]:

قلبي على فننِ القوافي طائرٌ
يشدو فترهفُ سمعها الألحانُ
يبكي على القدسِ السليبة تارة
تنداح عبر دموعه لبنانُ
(كشمير) و(البلقان) في زفراته
تسري، ويوقد حزنه (الشيشان)
كم بات موجوعًا يسامر همَّه
وتحيطه الآهات والأحزانُ

- مرارة الوجع العربي والوضعية العربية المتأزمة أحدثت

(1) الشاعر حسن محمد حسن الزهراني: ديوان «**قبلة في جبين القبلة**».

تحولًا عظيمًا في اهتمامات الشعراء العرب المعاصرين ـ ورؤاهم ومشاعرهم ـ فقد غلبَ اهتمامُهم بتأزّم الأمة على الاهتمام بالذّاتِ الأنثوية، وزاحمت الذاتُ الجَمعيةُ ـ التي تُمثِّلُ الأمةَ ـ هذه الذات الأنثوية مزاحمة ـ كادت ـ تصل إلى حد الإزاحة؛ حيثُ برزتْ الأمةُ في قصائد شعرائنا المعاصرين هي الذاتُ المُتغزّل بها، والحبيبة النائية، والحبيبة الخائنة ـ لتخليها عن ماهيتها ـ وهي الحبيبة المغتصبة ـ لتمكّنِ أعدائها منها، وهي الحبيبة التي يحول بينها وبين الشاعر أهوال وسيوف وحراس ورماح؛ لقد امَّحت ـ أو كادت ـ الصورةُ التراثية الماضوية المجيدة ـ للأمة ـ وبدت استعادة هذه الصورة وجعًا وحُلمًا دونه الدم والقتال والجهاد.

- مزاحمة الأمة للذات الأنثوية في قصيدة شعراء الباحة ـ باعتبارها جزءًا من القصيدة العربية المعاصرة ـ لم تقف عند هذا الحد، بل إن أوجاع الأمة ووضعيتها المتراجعة الراهنة ملأت جنبات الشعراء بالمرارات التي تحول دون رفاهية الحب والتغزل والتوفر على امرأة بالبوح حبًا أو هجرًا أو صبابة وسهدًا. هذا التحول من ذات الأنثى إلى ذات الأمة في القصيدة المعاصرة جديرٌ بدراسة نقدية مستقلة ترصد الرؤية الفكرية والفنية في هذا التحول.
- نموذجٌ من هذا التحول ـ في خطاب الأنثى في القصيدة المعاصرة ـ نطالعه في طرح الشاعر حسن الزهراني؛ حيثُ يصفُ ما استقر في ذاته الإنسانية ـ والشعرية ـ من

مرارات أزاحت مشاعر الغزل، وحجبتْ كلمات العشق والتبتل ـ في الأنثى ـ وجعلت لهموم الأمة الصدارة في القصيدة والتجربة الشعرية عمومًا. يقول الشاعر حسن الزهراني[1].

تحجرت في فمي يا حلوتي الجملُ
واسودَّ في ناظريّ الحلمُ والأملُ
لا تطلبي من أسير الحزن قافية
تشدو لحسنك، أو يشدو بها الغزل
يا حلوتي كيف لا يغتالني ألمي
وكيف لا يحتوي أيامي الملل
أما ترين كلاب الصرب تنهش من
أعراضنا، ما لنا في أمرنا حيل
أما ترينَ «يهودا» في الخليل سطوا
على المصلين كم من ساجدٍ قتلوا

يبتكرُ الشاعر ـ في هذا الطرح ـ مطالع غزلية جديدة لقصائده، معارضًا ـ بذلك ـ المقدمة الغزلية المعروفة للقصيدة العربية التقليدية؛ معتذرًا عنها بهموم الواقع العربي والإسلامي»[2].

هذا التحول ـ في خطاب الأنثى ووضعيتها في الشعر ـ

(1) الشاعر حسن الزهراني: ديوان «**صدى الأشجان**». ص 22.
(2) د. كاميليا عبد الفتاح: **الأصولية والحداثة في شعر حسن محمد حسن الزهراني** ص19.

يلاحظه الناقد في كثير من قصائد شعراء الباحة، بل إن بعض الشعراء وصل به التحول إلى حد تغييب الأنثى ـ أو إزاحتها ـ من قصائده مقابل هيمنة صورة الأمة العربية والإسلامية كما لاحظنا في شعر الدكتور صالح سعيد الزهراني في دراستنا النقدية حول تجربته الشعرية[1]؛ فالأنثى هي الأمة، والأمة هي الأنثى الساكنة في الوعي والحس والتجربة الشعرية.

وضعية الأمة العربية والإسلامية الراهنة هي محور التجربة الشعرية في ديوان «توقيعات شعرية» للشاعر عبد الله سالم الغامدي، «إذ تحتل كثيرًا من قصائد هذا الديوان، بل لنقل إنها هي محور الديوان ـ باعتبار قصائده في المعلم والمناسبات الوطنية جزءًا من الهم العام ـ لذلك نأخذ على الشاعر اختياره مسمى هذا الديوان «توقيعات شعرية»؛ إذ يبدو العنوان غير دال على التجربة الشعرية، بل يبدو وكأنه يصف حالةً طارئةً عابرة، وانفعالات وقتية بمشكلات الواقع، بينما تدل التجربة الشعريةُ نفسها على انغراسه في عصب الأمة وغوصه في آلامها. تبقى التجربة الشعرية دالة عمق الرؤية والطرح الفني في هذا الديوان، ويبقى العنوان عتبة فنية غير موفقة في إبراز هذه التجربة والتنبيه إليها.

يقول الشاعر عبد الله سالم في قصيدة «خيل الشعر»[2].

---

(1) الدراسة النقدية بعنوان **رثائيات الفارس المغيب وأثرها في المقومات الفكرية والفنية: دراسة تحليلية في شعر د. صالح سعيد الزهراني**. دار المطبوعات الجامعية. الإسكندرية. 2007م.

(2) الشاعر عبد الله سالم الغامدي: ديوان **توقيعات شعرية** ص/ 15.

وفتحتُ خيلَ الدار، ويحي ما أرى
إلا ظلامًا حالك الظلمات
ورأيت أمجادَ الرشيد وقد حنتْ
ظهرًا به سيلٌ من الطلقات
أرختْ يداها للصليب وإنما
ذلَّت يد الأمجاد للنكرات
أواه لو علم الرشيدُ بما جرى
للدار بعد تعاقب السنوات
ووجدت شيخًا غارقًا، قد قطِّعت
أوصالُه، متوسد العَرصات

- الشاعرُ وإن كان ـ في الأبيات السابقة ـ يرصد انهيار العراق،إلَّا أنه يشيرُ بهذا الانهيار إلى تداعي عموم الأمة؛ لأن انهيار العراق بحضارته ـ وموروثاته وفنونه ومقدَّراته ـ رمزُ انهيارات أخرى في جسد الأمة. كما أن عجز المجتمعات العربية عن إغاثة العراق وإنقاذه من السقوط هو ـ في ذاته ـ انهيار آخر؛ ولذلك يتابع ـ الشاعر عبد الله سالم ـ رصد وقائع هذا الانهيار في قصيدة أخرى هي «صرخة على باب الدخول»[1] التي يتناصّ فيها مع قصيدة المتنبي بمطلعها المعروف:

عيد بأية حال جئت يا عيد
بما مضى أم بأمر فيك تجديد

(1) الشاعر عبد الله سالم الغامدي: ديوان «**توقيعات شعرية**» ص17.

يقول عبد الله سالم الغامدي مستنكرًا على النفس فرحة العيد وهي ترى الأمة منتهكة حزينة مستلبة:

قد كنتَ يا عيدُ في أمنٍ تقابلنا
واليومَ ساومنا في الأمن رعديدُ
أواه يا عيد، ماذا سوف تنبئنى
إن كنت تسمعني والحسُّ موجودُ
أوطانُ أمتنا صارت ممزقةً
مقطوعةَ الوصل،لا وجهٌ ولا جيدُ
مسلوبةَ المالِ، لا جندٌ فتحرسُها
مهتوكةَ العرضِ، والقناصُ مرصودُ
أواه يا عيد، هذا وجه أمتنا
قد أبدعتْ فيه يا عيدُ التجاعيدُ
أعداؤها في جنان الأرض مسكنُهم
وأمتي سَامَها خسفٌ وتبديدُ
جراحُ أمَّتنا يا عيدُ قد كَثُرَتْ
وعزمُها من جبالِ الوهمِ مقدودُ

● وفي قصيدته «بواخر» يتصورُ الشاعر «علي الدّميني» تداعي المدن العربية واحدة وراء الأخرى في صمت مؤلم مهيب، صمتٍ يعبِّرُ عن العجز؛ حيثُ تتخلله الدموع والكمد والقهر، ولكنه ـ ورغم كل هذه المعاناة لا يتحول إلى فعل...!. يقول الشاعرُ[1]:

(1) ديوان **رياح المواقع** / الشاعر علي الدميني /ص91، 92.

في طولِها بيروت
في وزنِها عكّا
عَصرانِ من خِنجر
وأنا على الإسفلت
أستنطقُ القتلى
وأبوحُ حيث أبوح
بالحزنِ، والدفلى
من يعرف الطّابوق
وحدائق الخشبِ
سقطَ المدى في الصمت
وزمانُنا مَلْهَى
طُرِدَ الفلسطيني
وزنادُه المنفَى
خرجَ الفلسطيني
وعيونُنا مَبْكى
صَمدَ الفلسطيني
وقلوبُنا حجرٌ
ذُبِحَ الفلسطيني
وأتى زمانُ الصمت

إن الشاعر لا يرصد ـ في الجزء السابق من القصيدة ـ التفاصيل الحرفية للواقع بل يرصد حركة الواقع وحركة النفس ـ

obeikandl.com

والمجتمع ـ ولذلك يصور تزامن الانهيارات العربية مع الصمت العربي في مفارقة دامية مأسوية لا تحتملها العقول أو القلوب.

- وفي طرح شعري آخر يصور الشاعر عبد الرحمن سابي التشرذم العربي الراهن، والشتات، ويصور عبثية الواقع ساخرًا ممن لا يزال يأملُ ـ ويثق ـ في جدوى النضال؛ فالجسد العربي مسجَّى، مبعثر، يروي باضطرابه قصة الشتات. يقول الشاعرُ في قصيدة «ليلة السابع والعشرين»[1].

«النُّذرُ
قامتْ على أحداث ليلٍ جاهلي
والشواردُ من بني عدنان
عادوا دون قيدٍ
أو وجع
وصديقي ذلك المِقدامُ
أعيته الفضيلة
لم يزل يشدو لبابلَ والفرات
يشحذُ السيفَ بأسمال ورِيق
يتناسى كذبةَ الغازي
وأيلولَ القبيح
ويصلِّي هكذا دون دراية

(1) عبد الرحمن سابي: ديوان «**السّروى والرياح**» ص/ 100، 101.

يقرأُ الإنجيلَ خلف الركعةِ الأولى

يتمتمُ

يا ذبيحُ

يا طريدُ

يا انتصاراتي

ويا كلَّ النساء

منْ يقاوم خطوةَ المنسيّ

ومنْ يكشفُ عن ساق الحمامة

منْ يعطِّر ما تركه الدهرُ من روث الطغاة»

- ويطرح الشاعرُ فيصل أحمد الغامدي صورة كابيةً للوطن، بل يعرضُ خريطة للوطن تمتد فيها حدوده من الأحلام والوهم ـ لا من الحقائق ـ وتمتد من الأعراف ـ لا من النُّظم ـ ومن أحلاف الريح التي تطيح كل شيء. الوطن ـ والأمة ـ وفق هذه الرؤية ـ مترمِّد بالرمل، متعثِّر فيه. يقول في قصيدة «الأحلاف»[1]

من أحلام البحر

وأعراف النخل

وأحلاف الريح

يمتدُ الوطنُ المترمِّد بالرمل بصيرا

يرتد صهيلاً مرًا وقبائل

(1) الشاعر فيصل أحمد الغامدي: ديوان **المعتق من قبس** / ص35.

تتماثل في الطقس الأول من سفر الطير

وأصقاع الشمس»

- ومما يتميز به شعراء الباحة ـ في طرح رؤاهم حول الوضعية الراهنة للأمة ـ أنهم يسوقون بعض هذه الرؤى على لسان الطفولة، ويطرحونها ـ في بعض قصائدهم ـ شهادة على لسان طفل عراقي أو سوري أو فلسطيني، كما يسوقون هذه الرؤى عبر قصائدهم المهداة إلى أبنائهم، وكأنهم ـ في الحالين ـ يجعلون الطفل شاهدًا على الواقع وراصدًا للوضعية العربية الإسلامية المتأزمة. وهُم يُمعنون ـ من خلالِ الارتكاز على هذه الكيفية الفنيّة ـ في إدانة الواقع العربي والإسلامي؛ لأنهم يتهمونه باغتيال الطفولة ـ بطريق غير مباشر ـ ووأد براءتها؛ بما يلقيه على هذه الطفولة من ثقل وكآبة وتعقيد، ونُذر مخيفة تتهدد المستقبل.

ولقد سبق لي أن أشرتُ إلى هذه الزاوية الرؤيوية ـ وهذا النهج في المعالجة الفنية لإشكاليات الواقع ـ في دراستي النقدية حول شعر اثنين من كبار شعراء الباحة، وهما الشاعر الدكتور صالح سعيد الزهراني[1] والشاعر الأستاذ حسن محمد حسن الزهراني[2].

(1) انظر: **رثائيات الفارس المغيب وأثرها في المقومات الفنية**.

(2) انظر: **الأصولية والحداثة في شعر حسن محمد حسن الزهراني**.

* ينهج الشاعر عبد الله سالم الغامدي هذا النهج الفني في قصيدته «دمعة طفل عراقي على قبر أبيه»[1]، ونلاحظُ توفيقه في تقمُّص إحساس الطفل المروّع من مشاهد الدم والسلب والقتل في الطرق، وتوفيقه في تصوير استنكار الطفل وألمه من اغتيال جاره، واهتزاز كيانه من انتهاك أمه، واستعظامه عتاد العدو وعدته. كان الشاعر موفقًا حين ساق هذه المشاهدات والشهادات الدالة على سقوط العراق على لسان الطفل حيث كان سوقها على لسان الطفل مبررًا لعرض المشاهد الكارثية اللاإنسانية، كما أن هذا النهج مكّنَ الشاعر من أن يجعل الطفل لسان حال كل عربي مسلم مِنَّا، ولسان حال ذاته.

أمَّا مناجاة الطفل لأبيه المائت ـ في هذه القصيدة ـ فهي مُفعمةٌ بالدلالات العميقة الثرية؛ حيث تضمّنتْ مشاعر اليأسِ من الأحياء، وافتقاد النصير الذائد عن الحق. يقول الشاعر عبد الله سالم[1]:

أبتاه ماذا لو رأيتَ أحبتي
ورأيتَ من صُلِبُوا ومنْ لم يُصْلَبوا
ورأيت جارَ الدارِ لمّا قُطِّعَتْ
أوصالُه إربًا، وطفلاً يشخبُ
ورأيتُ أمي كيف مزق ثوبها
وعلى العفاف دموعها تتصببُ

(1) الشاعر عبد الله سالم الغامدي: ديوان **توقيعات شعرية**: ص29.

ثم يصف ترويع الطفل من قوة العدو وضعفنا:

أبتاه ماذا لو رأيت عتادهم
ورأيت ما جلبوا وما لم يجلبوا
أبتاه ماذا لو سمعتَ صراخنا
وسمعت مدفعهم يثورُ ويصخبُ
ورأيت بغداد التي أحببتها
وعيونُها بالدمع صارت تخضبُ

ومثلما ساق الشاعر عبد الله سالم شهادته على وقائع المأساة العربية الراهنة على لسان طفل يستغيثُ بأبيه المائت، يسوق الشاعر حسن محمد حسن الزهراني إحساسه بمرارة الواقع العربي في صورة شكوى يستقبلُ بها ابنه فيصل يوم مولده في قصيدة «غبار الدموع»[1] حيث تعترضه مرارات الوضعية العربية وتبقى غصصًا في حلقه تحول دون تمام فرحته بوليده، إذ يدرك ما ينتظر هذا الوليد من مستقبل محفوفٍ بالتوترات والاضطراب يقول الشاعر:

(ولدي) فديتك، جئتَ والدنيا على
كفِّ الفجائعِ والهمومُ تزلزلُ
فتحجرتْ قطراتُ دمعكِ حسرةً
فطريقُها منذ الولادة مقفلُ

(1) الشاعر حسن محمد حسن الزهراني: ديوان «**تماثل**». ص 67، 68.

عـيـنـاك يـا ولـدي رأتْ مـا لـم تـرَ
أبـصـارُنـا، والأمـرُ حـقًـا مـذهـلُ
أبصرتْ حالَ المسلمين، وما جرى
مـن ذلِّـهـم، والـذلُّ سـهـمٌ يـقـتـلُ

- وفي قصيدته «فيروز أغنية العش الأولى»[1] يجعل الشاعر الدكتور صالح سعيد الزهراني من مولد ابنته مناسبة لمساءلة التاريخ والواقع الراهن، ومناسبة أو معرضًا يسوق فيه مخاوفه على هذا الجيل الجديد الذي قدم والأيام كالحة، والواقع كله انهيارات وتحولات حديةٌ تمعن في تراجع الوضعية الإسلامية والعربية. هكذا كان خطاب الشاعر لابنته واستقباله لها حين استقبلت الدنيا وليدة. . . ! :

جـئـت وذاكـرة الأيـام مـثـقـلـة
بحزنها والليالي نبضها يحير

ويمعنُ في كشف تفاصيل الانهيار العربي، ويسوقها تحذيرًا لابنته ـ أو شهادة ـ ووجعًا من قلب أب كان يرجو لابنته مهادًا، وواقعًا أفضل. يقول الشاعرُ:

وجئتِ والصبحُ صبحٌ لا صباحَ له
وللبداياتِ وجهٌ لونهُ كدرُ
كان المدارُ دخانًا والديارُ لظى
والوقت داجٍ، ما له سفر

(1) د. صالح سعيد الزهراني: ديوان «تراتيل حارس الكلأ المباح» / **الأعمال الشعرية** / ص 28.

كان «الخليج» دماءً و«الجليلُ» أسى
وفوق «بامير» سيلُ الظلم يستعرُ
كانت نسائمُنا ريحًا مصرصرةً
نارية اللفح لا تُبقي ولا تذرُ
وقريتي مُلئت صمتًا وحشرجةً
كأنه لم يرقِّص رأسَها سمرُ
استدفئوا عُلب الإسمنت واحترقوا
بدفئهم والأسى يهمي، وما شعروا
لا الدارُ داري التي أهديتُها عبقي
يومًا ولا أهلها يا زهرتي بشرُ

- وفي معالجة مختلفة يطرح الشاعر «محمد الشدوي» رؤيته للواقع على لسان زهرة ـ هي فدائية فلسطينية ـ ويسوق استغاثتها إلى نماذج باذخة من أبطال التاريخ الإسلامي؛ حيثُ تسوق ضعفها واستغاثتها وحزنها للفاروق عمر رضي الله عنه لأنها عدمت الأبطال في زمنها، وعدمت منْ يشبهُ عمرَ ابن الخطَّابِ الذي لم يكن ليقف صامتًا ـ عاجزًا ـ أمام انتهاك أرضه وحقه وعرضه، ولم يكن ليقبل ـ مثلما هو حالنا ـ أو ليحتمل مشاهدات الخزي والعار والضعف الإسلامي والعربي، في فلسطين وغيرها، وهي تُبثُّ عبر المرئي والمسموع بينما نتناول وجباتنا ونثرثر حول مشاهد القتلى والمغتصبات والأرض السليبة...!، ومن هنا انبعثت صرخة الفدائية للفاروق «عمر» موجعةً حين تقول «أمَا في الحي من رجلٍ» فتعيد إلينا ذكريات مريرة؛

تُذكرنا بأزمنة ابتلاء الأمة الإسلامية التي أدّت إلى انتشار فنون الاستغاثة الشعرية ـ مثلما حدث عند انهيار الأندلس وانزياح المجد الإسلامي العربي على يد الإسبان فيها، وانزياحه على يد المغول والتتار في بغداد، وعلى يد الصليبيين حين استلبوا القدس.

إنَّ شعراء الباحة في طرحهم تأزُّم الأمة العربية والإسلامية، عبر روح الفدائية الفلسطينية ـ وعبر القصائد المسوقة على لسان الأطفال ـ إنَّما يعيدون إلى القصيدة العربية المعاصرة شعر الاستغاثة والمواليا، أو يؤسسون هذه الفنون الشعرية برؤية معاصرة. يقول الشاعر محمد الشدوي في قصيدة «معاناة زهرة فلسطين»[1]:

أواهُ يا عمر الفاروق، أين أبي
وأين أمِّي؟ أما في الحي من رجلِ
أواه يا عمر الفاروق كم صرختْ
من طفلة تستدر العونَ من بطلِ
لما رأتْ من بني الإسلام قهقرة
ذابت على شفتيها بسمةُ الأملِ

لقد انعكست الوضعية المأسوية للمجتمع العربي الإسلامي على قصيدة شعراء الباحة؛ حيث امتلأت هذه

(1) الشاعر محمد الشدوي: ديوان «**نقوش في كهف الوجدان**». ص24.

القصيدة بمشاهد القتل والدم والتعذيب واتخذت لغة التجربة الشعرية قاموسًا خاصًا من الألم ومفردات الهوان، والجرح والخزي والهزيمة و.... في مقابل وصف الآخر المُعادي ـ المُغتِصِب ـ بالقوة والهيمنة والتمكّن والقدرة على استلاب مقومات الأمة.

يقول الشاعر عبد الله سالم الغامدي في قصيدة «الخيانة الكبرى»[1] وهو يصف نيران أعداء الأمة التي اكتسحت الأرض العربية من حيفا إلى لبنان إلى العراق، وهي تحرق في اكتساحها آمالنا واعتدادنا، يقول الشاعر:

صرختْ مدافعهُم بغير لسانِ
وصرختُ في وادٍ من الأحزان
وسكبتُ دمعَ الشعر فوق حروفه
وجريت من حيفا إلى لبنان
ووطئت أرض الرافدين فلم أر
إلا صغيرًا حامل الأكفان
ورأيت بغداد وفي طرقاتها
تلهو سباعُ الغابِ بالإنسان

- ويقول الشاعر فيصل أحمد الغامدي في قصيدته بيداء المناخ «وهو يصف تحوُّل حالَ الرقعة العربية، وتسيّد الدم صفحتها[2]:

(1) الشاعر عبد الله سالم الغامدي: ديوان «**توقيعات شعرية**» ص35.
(2) الشاعر فيصل أحمد الغامدي: ديوان «**المعتق من قبس**» ص23.

من جنة في الأرض سال سِقاؤنا

حتى سقى الله الفراتَ دمَ الفرات

- ويستحث الشاعر عبد الله سالم الغامدي الشباب المسلم على استنهاض مشاعر النخوة والغيرة على حرمات الأرض والعرض والمجد، يستنهض فيهم روح أسلافهم، ويذكرهم بما كان لهم من أيام في تاريخهم المجيد، وما أكرمهم الله به من نعمة الإسلام، وشرفِ القرآن الذي يشرفُ كل مسلم بأمانة آياته، ويذود بها عن الحُرُماتِ والكرامة. يقول في قصيدة «إلى شباب الإسلام مع التحية»[1]

قُمْ؛ فإنَّ الأرض قد تاقت إلى
أن ترى نورًا وسعدًا في الضنك
أينَ دنياك التي أسقيتَها
من زلال الذكر ينبوعَ النُّسك
أين هارون، وبغدادٌ غدت
في زماني فوق أنياب المحك
العلوجُ الحُمرُ ساموها الأسى
عابدُ الصلبانِ فيها كبَّلك
شيخُها دامٍ وهذا طفلُها
فاقد الأعضاء، والعرض انتُهِك

(1) الشاعر عبد الله سالم الغامدي ديوان «**توقيعات شعرية**» ص11.

دمـعـة الأقـصـى أمـا أبـصـرتَـهـا
مـدَّ كـفًـا قـيـدهـا قـد أبـصـرك

وتعترض الشاعر لحظاتُ يأس من جدوى الشعر، وجدوى رسالته ـ وإمكانية إيقاظِ الهمم من خلاله ـ لولا أنه يستعيد الأمل بالله، ثم بمقومات أمته الإسلامية وتاريخها الناصع. يقول عبد الله سالم في قصيدته «خيلُ الشعر»[1]

هـي قـصـةُ الـوطـنِ الـكـبـيـر، أمـا تـرى
فـي الـقـدس آثـارًا مـن الـنـدبـاتِ
أو مـا تـرى الـشـيـشـانَ كـيـفَ تـحـولـت
أفـراحـهُ عـرسًـا مـن الآهـات
تـتـصـارع الأحـيـاءُ، تـحـيـا ذلـةً
وتـمـوتُ عـنـد تـقـاسـم الـوجـبـاتِ
أو لـسـتَ تـبـصـرُ يـا أخـي إبـنًـا لـنـا
فـي الـقـيـد، مـحـرومًـا مـن الـزفـرات
أوقـفـتُ خـيـلـي حـيـنـهـا فـي رهـبـةٍ
وبـكـيـتُ مـن أسـف ومـن حـسـرات
والله لـولا أنـنـي مـن أمـة
سـتـعـود يـومًـا تـرفـعُ الـرايـات
لـقـتـلـت خـيـلَ الـشـعـر فـي أوزانـه
ودفـنـتـه فـي مـرقـد الأبـيـاتِ

(1) الشاعر عبد الله سالم الغامدي ديوان «**توقيعات شعرية**» ص16.

- ورغم أن مرارات الواقع العربي والإسلامي تشمل جميع الشعراء، وتشكُّل لهم غصصًا تعترض مذاقات الحياة، وتهيمنُ على عصب التجربة الشعرية ـ رغم ذلك ـ نجد في طرح بعض شاعرات الباحة افتقارًا إلى عمق الرؤية، وحرارة الطرح ـ أيضًا ـ بدءًا من لحظة اقتناص اللقطة الواقعية الدالة على تأزم الوضعية العربية وتحويل هذه اللقطة ـ أو المشهد ـ إلى تجربة شعرية ووقائع شعرية. ففي الطرح الشعري ـ لبعض ـ شاعرات الباحة ـ ممن تيسر لنا الاطلاع على تجربتهن الشعرية ـ نلاحظ أنّ رؤيتهن لتأزم الوضعية العربية تقف عند حدود رصد الوقائع وتسجيل بعض المشاهد، وبعض التفاصيل في طرح مباشر، لا يستبطنُ علل الانهيارات العربية، ومكامن الخلل، وكيفية الخلاص.

قد يعترض بعض النقادِ ـ والمتلقين ـ على ملاحظتي هذه، بالقولِ بأنَّ البحث عن مكامن الخلل، وبواعث الانهيار في كيان الأمة ليس من مهمة الشعر وغاياته؛ فالشاعر ليس محللًا سياسيًا،أو قائد أمة أو خبيرًا دبلوماسيًا. ونقول: إن الطرح الشعري أو التجربة الشعرية ليست مجرد رصد بل هي رؤية لعموم وضعية المجتمع ـ والواقع وإشكالياته ـ وإن استكناه الشاعر أسباب الخلل أو أسباب التأزم جزءٌ من هذه الرؤية، وهذه الرؤيةُ تختلف عن طرح السياسي والدبلوماسي والقائد العسكري؛ لأن الشاعر يعتمد في رؤيته الشعرية على حدوسه الروحية التي هي مزيج من الثقافة والوعي، والحسِّ

المرهف والشعور المتَّقد والقراءة الاستبطانية للواقع المحيط؛ بما يوجد اختلافًا وتميزًا بين الشعراء. ومن هنا نحتاج إلى الإبداع الشعري لنتلقّى به صورة الواقع ـ وصورة الوجود الإنساني كله ـ ولا نستغني عنه بمقالات السَّاسة وطرح الخبراء في هذا المجال. نستأنس بالشعر، ونصدقه ونهتدي بحدوس النماذج العليا منه، ونعتبرها في مصاف رؤى الحكماء وخلاصات الفلاسفة ومشاهدات الرائين، هذا إن لم تفُقْ كلَّ هذا، وتتفوق عليه.

لذلك كله نقول إن الطرح الشعري لإشكاليات الواقع العربي ـ فيما بين أيدينا من تجارب شاعرات الباحة ـ ينقصه الاستكناه والاستغوار ومساءلة الواقع، والتغلغل في بنية المجتمع العربي والإسلامي، والتغلغل في بنية الذات بتراثها وحاضرها وما ينتظرها في غَدها، بناءً على راهنها.

- من نماذج طرح ـ بعض ـ شاعرات الباحة لإشكالية التأزم العربي الراهن قصيدة الشاعرة «شريفة أحمد علي الزهراني» «الأزقة الحمراء»[1]

وهي تصف مأساة العراق: ـ

«العراق

حكايةُ الدموع والآهات والدمِ المُراق

(1) الشاعرة شريفة أحمد علي الزهراني: ديوان «**الأماني الذابلة**» ص51.

حكايةُ الضياعِ... والدموع... والفراقْ

حكاية الرفاقْ.... حكايةُ العشاق

حكايةٌ وتحتفي بدمعها المآق

جهادهُا وفاق

وحربها اتفاق.....»

وتتابع الشاعرة رصد وقائع سقوط العراق فتقول في القصيدة نفسها ـ[1].

«هناك في العراق.....

طفلةٌ منبوذة «وبيتها الرُّواق»

أمومة مكلومة..... وابنها يُساق.....

رجولة تضرجت بالدمع بالدماء، بالدمار في العراق..

هناك في العراق

مساجدٌ مهجورة

مقابر مأهولة.....»

وفي قصيدتها «القدس الأسيرة»[2] تلتقط الشاعرة حزن الأذان في ضواحي غزة، لكنها تحاول من خلال هذا الأنين أن تبثَّ شيئًا من الحمية والأمل، وأن تذكِّر بالإباء العربي. تقول شريفة أحمد:

---

(1) المصدر السابق / ص52.

(2) الشاعرة شريفة أحمد علي الزهراني: ديوان «**الأماني الذابلة**». ص59، ص60.

«وأرى الأذان وقد تهادى في ضواحي غزة الأحزان..

فلنبنِ العرين

وأراك في (أثرٍ)، كأجمل نفحةٍ من قلب من حمل الأماني

صارخا..

.. فليحيى كلُّ الفاتحين...

ما متَّ.. يا إنسانُ يا عربي.. يا ابن الخالدين...

فبجوفنا تحيا كما يحيا الآباء.. كرايةٍ للنصر تبقى شعلة للقادمين.....»

وفي قصيدتها «خيانة قلم»[1] تصف الشاعرة يأسَها من سواد الواقع الذي يعبّرُ عنه تناثرُ الحبر فوق أوراقها، وترى الأمة العربية أمة حزينة منذ القدم تحيط بعينيها هالات سوداء، وتحيط ـ هذه الهالاتُ السوداءُ بالواقع، وبالأفق العربي. تقول:

وتناثر الحبر المبعثرُ خلف أنقاض الهمم

وتمزقت أوراقُ شعري.. ماتت الكلمات لم يبق سوى رهق ودم....!

والناسُ ما زالوا يرون الحزنَ موروث الأمم.....!!

دمعٌ.... ودم.....!

(1) المصدر السابق / ص 24.

والكلُّ ماض للزوال... والأنسُ يسلبه الندم
والصفحة البيضاء دنَّسها الشقي..... مع الألم..
والهالة السوداء ما زالت تحيط بأفقنا منذ القدم.....!!!

- نُطالعُ طرحًا أعمقَ في قصيدة «العيد» للشاعرة أسماء الزهراني، وهي تتساءلُ عن المعنى الحقيقي للعيد، وهل هو معنى ظاهري وممارسات سطحية للمرح، هل هو كامنٌ في الأخوّة واجتماع الفرقاء، هل هو محاولة العلو عن حزن أمتنا التي دامت مآتمها. تقول:

«أهو التسامي عن مواجعِ أمة
عن مأتم، تسري ـ الزمان ـ لمأتم؟»[1]

وتحمل الشاعرة سلامها إلى قتلى العراق، والمستضعفين فيه؛ تتقاسم معهم مرارات الهزائم في العيد؛ مستنكرةً أن تستشعر العيدَ في العيد، أو أن يستشعره أحد منَّا، ويحتفي به، بينما مآسي المسلمين حولنا في كل مكان. وتطرح الشاعرة آلامها من ضياعِ عيد العرب والمسلمين مع ما ضاع من أمجادهم، بما لم يجعل لهم في العيدِ عيدًا. تقول:

«يا عيدُ بلِّغ في العراق أحبةً
عبثتْ بهم كفُّ الصليب المجرمِ
إنَّا نسينا العيدَ في أحداقهم
قد جال فيها دمعها كالعندمِ

(1) الشاعرة أسماء الزهراني: ديوان «**انكسارات**» ص79 ـ 81.

إنا أضعنا العيد في طيات

تاريخ، لهامات النجوم مرقَّم

ورمى علينا الحزنُ من أثوابه

ما كاد يذهب باليقين الملهمِ»

وتتساءل الشاعرة أسماء الزهراني: ما الذي يحول بيننا وبين الفَخَار؟ هل هي خارطة الطريق تشوهت معالمها، هل تغيرت ملامح نهر دجلة من كثرة الدم والدموع فلم تعد تعرفه الخيول؟ تقولُ ـ في القصيدة نفسها ـ :

«يا عيد سائلْ في العراق أحبة

وقفوا على أعتاب يأس معتمِ

هل تاه دجلةُ عن مواطئ خيلنا

لما تماهى الدمعُ فيه مع الدمِ؟

وتربصتْ بالفاتحين يدُ الردى

تُبدي لهم وجه المصير المظلم؟

إذ لان صلبُ المستحيل لهمةٍ

شمختْ على أفق الطموح الآدمي

فعنا لها قلبُ الطبيعة صاغرًا

لتحط ميثاق الخلود المُبرَمِ»

* إنَّ تأزّمَ الواقع المصري من أبرز معالم تأزّم الوضعية العربية الراهنة؛ حيثُ بدا هذا التَّأزُّمُ جرحًا مفتوحًا وضحت فيه معالمُ كلِّ الجروح العربية والإسلامية؛ لما تمثله مصر من

مكانة تاريخية وحاضرة آنية وسط أشقائها العرب والمسلمين؛ ولذا كان وقوعها في الفوضى والاضطراب وانقسام الرأي فرصة ذهبية لأعداء الأمة العربية الإسلامية لأن يزيدوا من أسباب الفتنة فيها، ويعززوا العداء والشتات بين أبنائها حتى تتراجع عن دورها الاستراتيجي، فتكون تلك قاصمة الظهر لمصر ـ وللأمة العربية والإسلامية ـ ويكون السقوط المروع، الذي يجتهدُ الكيانُ الصهيوني ـ وحلفاؤه من الغربِ ـ في التخطيطِ له بدأبٍ.

هذه الأزمة بثقلها وأبعادها ونتائجها السلبية الراهنة والمستقبلية، وما تلقيه من ظلال معتمة على المجتمع العربي وضعيةٌ أرَّقت كثيرًا من الشعراء المعاصرين، وشغلت كثيرًا من تجاربهم الشعرية، كما كانت الهمّ الأساسي لبعض التجارب الشعرية لشعراء الباحة.

- يُعدُّ الدكتور صالح سعيد الزهراني من أكثر شعراء الباحة طرحًا شعريًّا لإشكالية التأزّم الراهن لوضعية مصر، فقد طرح رؤيته الشعرية حول هذه الوضعية في أكثر من قصيدة، من ذلك قصيدته «بهية»[1] ثم في قصيدته الأحدث «يا سدَّنا العالي»[2]. وبدءًا من عنوان

(1) د. صالح سعيد الزهراني: ديوان «اللحن الأخير على شفة المغني». **الأعمال الشعرية الكاملة**. ص342.

(2) د. صالح سعيد الزهراني: قصيدة «**يا سدنا العالي**». الموقع الإلكتروني للشاعر.

القصيدتين نلاحظ ارتكاز الشاعر على الموروث التاريخي والشعبي لملامح مصر؛ فمصر في الموروث الشعبي الغنائي والتمثيلي هي الحسناء «بهية» ـ بما لهذا الاسم من دلالة وإيحاءات ـ كما أنَّها ذاتُ مكانةٍ تاريخيةٍ، وسياسيةٍ وحضاريةٍ تجعلُها بمثابةِ السدِّ العالي لجميع أشقائها العرب والمسلمين.

- يستثير عنوان قصيدته «يا سدنا العالي»ـ لدى المتلقي دلالة تاريخية تتجسد آليًا لدى مطالعة الديوان... هذه الدلالة هي ما اختزنه السد العالي في الذاكرة المصرية والعربية من معان إيجابية، بوصفه البناية العظيمة التي شُيِّدتْ ـ بفضل الله ـ من أجل مدافعة فيضان النيل عن مصر والحفاظ عليها.

هذه هي الدلالة المباشرة التي يستدعيها «السد العالي» في ذاكرة التلقي، لكن حضور «السد العالي» في عنوان القصيدة يستدعي دلالات زمن هذا السدِّ، وحاويته التاريخية؛ فيستثير بداخلنا معاني النخوة والفخار والاعتزاز بالذات والقدرة على مواجهة تحدي الآخر، يستثيرُ الاعتزاز بالذات والقدرة على مواجهة تحدي الآخر وانتهاكاته الساخرة، حيثُ يستحضرُ ذكرُ «السد العالي» زمنًا كان فيه الصوت المصري فخيمًا مواجهًا متحديًا لأعدائه. كان الصوت المصريُّ هو السد العالي؛ ومن ثم يبدو عنوان القصيدة «يا سدنا العالي» خطابًا شعريًا يوجهه الشاعر إلى مصر ويطلقه بصوت جمعيٍّ «سدَّنا»

ويحمِّله رسالة الأمة العربية إلى مصر، رسالةً يسطرُها شاعر أمين راءٍ، ألزم شعره بهمومِ واقعه.

- وعبر جدلية الثنائيات الضِّدية يوجه الشاعر خطابا إشكاليًا إلى مصر، إلى المجتمع العربي والإسلامي، وإلى التاريخ والذات؛ يوجه خطابا إشكاليًا لأنه يصور مصر بوصفها السدَّ العالي، بما تمتلكُ من قوةٍ وإمكاناتٍ ـ ووضعيةٍ تاريخية ـ وقيمةٍ وصدارةٍ في الخارطة العربية المعاصرة. ويصور مصر ـ في تأزّمها الراهنِ ـ سدًّا يحولُ دون استقرار الأمة العربية، ويحولُ دون نهضة المجتمع العربي وهكذا يُفجِّرُ عنوانُ «السد العالي» ثنائياتٍ من الدلالات الضدية التي تعدُّ انعكاسًا لإشكاليات التأزم الراهن لمصر والمجتمع العربي.

ويفتتح د. صالح الزهراني قصيدته بخطاب شعري يعلن لنا فيه هويته المتفردة، هوية يمتزجُ فيها عشق الجزيرة العربية ـ وترابها ونخيلها ـ مع حب مصر، ونيلها وهوائها. يقول الشاعر:

يا مصرُ ماذا عن هواكِ أقولُ
والشرحُ عن هذا الغرام يطولُ
فتَّحُت والأهرامُ نصفُ مشاعري
ودمي به من عطر نيلِك نيلُ
نصفان فيَّ: من الجزيرةِ نخلُها
ولمصر منّي النهرُ والجندولُ

في مكة التقت القلوب بنبضها
ونما بحجر حنانها اسماعيل

ويحملُ الشاعرُ إلى مصر رسالته ـ بلسان المجتمع العربي الإسلامي ـ يحمل إليها مواجع الأمة؛ ليذكرها أنها موئل المجد والأمان، ويستثير فيها قوى النهوض من هذه الكبوة، وينبهها إلى خطر استسلامها للضياع الذي هو ضياعُ مطلق لعموم الأمة. يقول:

آت إليك أجرُّ جيش مواجعي
وأنا بنكبة ما أجرُّ خجولُ
خلفي من الأحزان ألفُ قبيلةٍ
ومدامع مسفوحةٌ، وعويلُ
عربٌ على نهر الجحيم حياتُنا
وأسىً، وخوف خائف، وذهولُ

يبرز الشاعرُ ـ في الموضع السابق من القصيدة ـ أنويَّتَهُ عبر الأفعال والضمائر: «آت، أجر، أنا، خجول، خلقي...»، وهو عبر هذه الهوية يؤكد رسالته ومسؤوليته، كما يطرح الهوية النحنيّة في مثل قوله: «ألف قبيلة، عرب»، ثم يمزج الهويتين معًا في تضافر مصيري واحد، هو قوله «حياتنا»؛ لتتعالى درجة التكييف الدرامي، فيبدو الشاعر كيانًا مشطورًا بين الخشية على مصر من الشتات ـ من جهة ـ والانشغال بتنبيه مصر إلى شتات الأمة ـ من جهةٍ أخرى ـ ويبرز تأزّمه من خلالِ ضمائر الخطاب الشعري؛ حيث ينتقل بين هذه الضمائر بكيفيةٍ تصوِّرُ الشعورِ بالتمزق المأسوي ـ بين الأنا والـ «نحن» ـ فهو يشير إلى

المجتمع العربي بضمير الغائب «هم» تارةً، ويشيرُ إليه بضمير المتكلم «نحن» ـ تارةً أخرى ـ مما يبرزُ شعوره بالشتاتِ بين كونه الرائي ـ حامل شكاية الضمير الجمعي ـ وكونه رمزًا لضمير الجمعيّ الموجوع ـ محل الرؤية والطرح الشعري ـ يقول الشاعر، راصدًا التحول المأسوي في صورة المجتمع العربي والمصري الراهن:

فبلادُنا مسلوبةٌ، ووجوهنا
مغسولةٌ، وطعامنا مأكولُ
في كل بيتٍ رايةٌ منصوبةٌ
وبكل شبر دولةٌ وقبيلُ
من أين نخرجُ من متاهة عمرنا
قرنٌ يلفُّ مصيرَنا المجهول
في الشام (فارس) تستبيحُ وجودَنا
باسمِ الحُسين، ودينها تضليلُ
وعلى ضفاف (الرافدين) حريقُها
فالنخلُ جمرٌ، (والعراق) رحيلُ
والوضعُ في (اليمن السعيد) مذابحٌ
لم تنج منها (حاشدٌ وبكيل)
يا مصرُ: حالُ العربِ غصنٌ حائرٌ
خلف الرياح يميلُ حيث تميل
يا مصر: وجهك لا يُساوَى مثلُه
يا مصر: قدرُك في النفوس جليلُ

* وعبر الثنائيات الضدية ـ أيضًا ـ يصور الشاعر ـ في هذه القصيدة المأزقَ التاريخي الراهن لمصر، حيثُ يجسِّدُ عبر هذه الثنائيات الضدية الإشكاليات التي تمزق خريطة مصر ـ وتنتهبها ـ عبر مخطط داخلي وخارجي يتربَّص بكينونتها. يقول الدكتور صالح:

وجهانِ للإعلامِ، يصنعُ مسرحًا
للزيفِ فيه، قاتلٌ وقتيلُ
مصرانِ مصرُك: أنتَ أيٌّ فيهما
مصرانِ مصرُك: ثورةٌ وفلولُ
عامانِ: والرشاشُ عزفُ رصاصه
لغةٌ يحارُ بفهمها التأويلُ
ومحلِّلون، على الهواء حديثُهم
إفكٌ، وسبٌّ مقذع وغسيلُ
لم يبق في مصر العظيمة مخلصٌ
من فاته الإرهاب فهو عميل

وحين يبحث الشاعر عن الأطراف المسؤولة عن ترنح الوضعية المصرية، لا يوجه الإدانة إلى أفراد ـ أو جهات بعينها ـ فالشاعر ـ كما قلنا ـ مختلف عن رجل السياسة والخبراء السياسيين ـ ولذا فهو لا يسمي القوى التي تقف وراء محاولات انهيار مصر، بل يوجه الإدانة إلى الذات العربية كلها، التي سمحت بغياب الوعي، والعجز عن تقدير مدى الخطر المُحيقِ بوضعيتها التاريخية والمستقبلية. يقول الشاعر:

سأقولُ من سرق الصُّواع، وباعهُ
كلا، فلا أمريكا ولا إسرائيل
السارقون صواعَ مجدك كلُّنا
نحنُ اللصوص وكلنا مسؤولُ

- وفي رؤية شعريةٍ أخرى يقدم الشاعر «علي الدميني» خطابًا شعريًا لنيويورك في قصيدته «حوارية النيل ونيويورك»[1]، وهي قصيدة إدانة للممارسات الأمريكية والهيمنة الأمريكية القامعة للحريات العالمية، قصيدة هجاء سياسي لأمريكا، تنضم إلى مثيلاتها من القصائد العربية المعاصرة التي تعد خطابًا شعريًا خاصًا لأمريكا ـ مثل قصيدة أدونيس «قبر من أجل نيويورك»[2] وقصيدة الشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي في «قداس جنائزي من أجل نيويورك»[3] ـ بل لنقل ـ إنها تنضم إلى الرؤى الشعرية الإنسانية[4] التي توجه إدانتها

(1) الشاعر علي الدميني: ديوان **رياح المواقع** ص81.
(2) أدونيس: **الأعمال الشعرية الكاملة**: ص288 ـ الى 400.
(3) الشاعر عبد الوهاب البياتي: ديوان **مملكة السنبلة** ص52.
(4) من أروع القصائد العالمية المتوازنة في رؤيتها للمدينة الأمريكية وإدانتها للتناقض في المنظومة والممارسة الأمريكية قصيدة الشاعر الإسباني لوركا «الفجر» ترجمة علي شاش ونشرت في مجلة «**فصول**» المجلد 3 العدد 4/أغسطس ـ سبتمبر 1983 م ص50 تحت عنوان نيويورك في ست قصائد وكذلك الشاعر الإفريقي «سنغور» والشاعرة الرومانية ماريا بانوش في قصيدة «**إليك أمريكا أتحدث**» وقد قام بترجمة القصيدة الأستاذ توفيق حنا ومحمد طلبه إبراهيم والشاعر الروسي ماياكوفسكي.

للشخصية الأمريكية بوصفها قوى استلابية مزدوجة المعايير، قوى دعائية متناقضة تقاوم الشخصانية وفرادة الشعوب والأمم في الوقت الذي تتشدق بحراستها حقوق الإنسان...!

- وفضلًا عن نقد الهيمنة الأمريكية وممارستها في هذه القصيدة ـ بما لا يتعلق بموضوع هذه الصفحات ـ فقد طرح الشاعر علي الدميني الكيان المصري ـ والعربي ـ بوصفه ذاتًا منغرسة في الجسد الأمريكي، تؤرق ممارسات هذا الجسد، وتحول دون عملقته واستطالته، وتواجهه في نديةٍ. يقول الشاعرُ:

نيويورك: هذي مداخنُ حلوان مغروزةٌ في فؤادك كالشوك
ما ضرَّ من يحمل الأزهر الفاطمي إليك على ناقة وبداوة
نيويورك: ما ضر من يلجمُ الجوعَ في أعين النيلِ
يأخذ من أرض سيناء سطحَ الرمال
وينسى النداوة.

إن وضعية مصر في خطاب الإدانة لنيويورك ـ في هذه القصيدة ـ وضعية متأزمة أشار إليها الشاعر بمفردة «الجوع». لكنه مع التطور الدرامي للتجربة يوسع من رقعة الإدانة، ويُوسع من رقعة الرؤية الشعرية لتشمل الوضعية العربية كلها ـ لا مصر وحدها ـ فيصور ما حل بالمجتمع العربي ـ على يد الممارسات الأمريكية ـ من تشوه وقبح وقتل وتخلف. يقول الدميني:

نيويورك يا أورشليمَ العدو، ويا أورشليم القيامة
عاثت بنا صفقاتُك
جاهُك أورثنا القبح
شوَّهنا
وبنى حولنا شبحًا لا نراه
يُدوّم حول المدائن والطرقات
وما بين موتين ها نحن نركض
نركض
حيث يطاردنا الآن أوباشُنا:
يمدون للطير قنبلة فيبيضُ لهم ولدا،
ويفيضُ الرصاص فنحتارُ:
بين العدو المقابل
واليمّ خلف المراكب والأمنياتْ

ثم يقدم الشاعر استشرافًا للغد، يضع فيه النيل في مواجهة نيويورك ويجعل فيه الحراب قائمة مستعدة، والهيمنة الاقتصادية الأمريكية في تراجع وخذلان... يستشرف الشاعر الغد المقبل؛ فيلمح على باب نيويورك قبضة قوية من أحزان مصر ونيلها ـ ومن قهر الزنوج وكبريائهم المدمى ـ تدكها وتزلزلُ كيانها، يقول:

«نيويورك: يبقى الندى في الحراب
ونيلك يا مصر أبقى من الدهر

والمال

والاجتذاب

نيويورك والقنبلة

وماءُ الخليقة في المرحلة

وهذا الضبابُ منْ أرسلَه

لتصلِّي نيويورك

أحزانُ مصر الحبيسة والمرسلة

وأصوات «سُودِ نيويورك» حين تفيض على كل باب».

• انعكاس تأزم الوضعية العربية في عناوين الدواوين وعناوين القصائد

لا نقصد من الإشارة إلى هذه الظاهرة الفنية أن نزعمَ القيامَ بعملية إحصائية ـ في دواوين شعراء الباحة ـ نرصد بها مدى انعكاس التأزم العربيِّ الراهن على عناوين هذه الدواوين والقصائد؛ فهذا الإجراء ـ في ذاته ـ جدير بدراسة مستقلة تقرأ عتبات الديوان وعتبات القصائد، لكنا أردنا الإشارة فقط إلى هذه الظاهرة ـ في سياق هذه الصفحات ـ باعتبارها ذات صلة وثيقة بما يعانيه المجتمع العربي والإسلامي الراهن، ودالّة على مدى انشغال شعراء الباحة بتأزم الوضعية العربية الراهنة؛ إذا غلبت دلالات القهر والانكسار والحزن، والإعتام والتراجع على كثير من هذه العتبات ـ العناوين ـ وامتلأت بمفردات الأسى والقهر والوجع والحيرة والقلق النفسي، ونمثّل لما

نقولُ، بديوان الشاعر عبد الرحمن السابي «السروى والرياح البيض»؛ حيث نطالع انعكاس تأزم الواقع على عناوين قصائده، مثل: «رغبتي في الموت، أسمي انكساراتي، سقوط، ذلل، أنشودة التراب»/ . . . . الخ.

أما الشاعرة أسماء الزهراني، فكان عنوانُ ديوانها نفسه دالًّا ـ وهو «انكسارات» ـ فضلًا عن عناوين بعض قصائدها، مثل: «كل موت وأنتم بخير»، «ذاكرة الندم» «في انتظار الذي لا يجيء»، «ذات غفلة ووهم»، «رحال في وجع السنين»، «اللحن الشريد» «حوار على إيقاع الخطيئة».

كذلك نستدلُّ بعنوان ديوان الشاعر محمد صبحي الغامدي ـ آهات مكتومة ـ وعناوين بعض قصائده التي تحمل هذه الظلال القاتمة من انعكاسات الواقع، مثل: «المؤامرة الدنيئة» «كابوس طالحة» «رمز المآسي» «مرّ الرحيل» «غدر الصديق» «أسى الدنيا» «آلام وأحلام الأمة الإسلامية».

كذلك كانت بعض دواوين الشاعر حسن الزهراني معنونة بما يعكس أثر الواقع في التجربة الشعرية، مثل ديوانه «صدى الأشجان» الذي ضم قصائد مندرجة أو منغمسة في ظلال الواقع القاتمة مثل (لا الدهر دهري) «رحيل الشمس»، «دموع وزفرات» «صهيل الآلام» «رضينا الظلم» «لمن أشكو» «دماء الأبرياء» «سراب العمر ودموع الندم» «لبنان الجريح».

أما الدكتور صالح الزهراني فتعد عتبات دواوينه ـ وقصائده ـ عبر تطورها الرؤيوي، وتواليها الزمني شاهدًا شديد

الدلالة على هذه الظاهرة التي نشير إليها، وذلك بدءًا من ديوانه «تراتيل حارس الكلأ المباح» ثم «ستذكرون ما أقول لكم» «فصول من سيرة الرماد»، «ورقة من سفر الرؤيا» «أبكم مهمته الكلام»، وصولًا إلى «اللحن الأخير على شفة المغني». ولا نستطيع ـ بحال ـ تتبع عناوين قصائد الدكتور صالح سعيد الزهراني لنستدل على أثر تأزم الوضعية العربية فيها؛ لأنها ـ في الغالب ـ لا تكاد تخرج عن هذه الدلالة.

● عتبة الإهداء في دلالتها على تأزم الوضعية العربية

كذلك تأتي عتبه الإهداء في مقدمات الدواوين دالة في كثير من الأعمال الشعرية ـ لشعراء الباحة ـ على أثر التأزم العربي الراهن، ونحن نعرض بعض هذه الإهداءات من الناحية الدلالية فقط، ولا نعرضها بوصفها من أساليب الأداء اللغوي في التجربة الشعرية؛ لأنها في حال عرضها كأسلوب من هذه الأساليب تستوجب تحليلًا نقديًا خاصًّا له إجراءاتُه المعروفة.

من نماذج الإهداءات الدالة ـ على أثر اضطراب الواقع العربي في عتبات دواوين شعراء الباحة ـ الإهداء الذي يتصدر ديوان «رياح المواقع» للشاعر علي الدميني؛ حيثُ يقول فيه[1].

(1) الشاعر علي الدميني: ديوان «**رياح المواقع**» الصفحة الأولى.

«إلى

نجلاء،

وعادل،

وخالد

أطفالي

وإلى أطفال العالم الراكضين في براري الحلم والرعود، مثلي»

إن الشاعر ـ في هذا الإهداء ـ لا يقدم لأطفاله ـ وأطفال العالم ـ مجرد التحية، بل هو يُلمح لهم أنه سيقدم لهم الوعي والرؤية عبر تجربته الشعرية في الديوان، يقدم لهم صورة الواقع والعالم كما يراها. وهو ينضم إلى طفولتهم ـ بطفولته الداخلية ـ مؤكدًا أنه مشترك معهم، متماس في الحلم والرعود، في الشاعرية والغضب، في النعومة والثورة.

- ويهدي د. صالح الزهراني ديوانه «ستذكرون ما أقول لكم»[1] إلى أطفاله ـ كذلك ـ يقول فيه:

«إلى عصافير العُشّ

فيروز

مازن

سارة

أروى

(1) د. صالح سعيد الزهراني: ديوان **ستذكرون ما أقول لكم**. الأعمال الشعرية الكاملة ص73.

طارق

رنا

أملاً بلا غد بلا خوف»

وندهش من هذا الإهداء المؤلم الذي يصور مدى توجس الشاعر من المستقبل الذي يرى فيه أبناءه ـ وجيلهم كلّه ـ أملًا بلا غد، ومن ثمَّ فهو غدٌ بلا خوفٍ؛ حيثُ الخوفُ رفيقُ الأمل والطموح. يمعن الواقع في تأثيره في التجربة الشعرية ـ للدكتور صالح سعيد ـ بدءًا من عتبة الإهداء؛ حيث نلاحظ تزامنَ الإهداء مع التحولات التي تشهدها الخريطة العربية في هيئة الثورات ـ أو ما سمي بالربيع العربي ـ فيقدم د. صالح سعيد الزهراني مباركته الشعرية لهذا الحراك وهذا التحول وذاك الربيع. يقولُ في إهداء ديوانه «ورقة من سفر الرؤيا»[1]:

«إلى براعم الفرح

التي قررت الخروجَ من تحت الركام

بدون استئذان»

«إلى الفجر العربي القادم من رحم

الظلمات».

- وفي تطور دلالي رؤيوي ـ واختيارٍ فكريٍ ـ يضمُّ الشاعر ذاته إلى الذوات العربية، والكيانات الإنسانية التي

(1) د. صالح سعيد الزهراني. ديوان **ورقة من سفر الرؤيا**: الأعمال الشعرية الكاملة ص 111.

حضرت معه المشهد العربي الراهن، حضرت التأزم والحلم، وانكسار الحلم، والتضعضع، ومحاولة النهوض وـ ما يسميه الشاعر بـــ الطلق الحضاري ـ يهدي التجربة الشعرية إلى هذه الذوات؛ فيبدو الإهداء شهادة على الواقع وشهادة على انصهار الذات الشاعرة مع الضمير الجمعي. يقول د. صالح الزهراني في إهداء ديوانه «الحروف لها أجنحة»[1]:

«إلى كلِّ منْ عاشَ معي من هذا الجيل

العربي آلامَ الطلقِ الحضاريّ

وحلمَ بأن يشهدَ ولادة الجنين

وبهجة القابلة»

كذلك يهدي ديوانه «رياض الزعفران»[2] إلى هذه الكيانات المُنجزة التي تحاول إنبات البذور بعد طول اختناقها من غياب الشمس. يقولُ:

«إلى كل صنَّاع البهجة

الذين تعمدوا أن يتأملوا تبرج الوردة

ويحتملوا طعنة السكين»

---

(1) د. صالح سعيد الزهراني: ديوان «**الحروف لها أجنحةٌ**» / الأعمال الشعرية. ص 168.

(2) د. صالح سعيد الزهراني: ديوان «**رياض الزعفران**» الأعمال الشعرية. ص 279.

وفي ديوانه «اللحن الأخير على شفة المغني»[1] يهدي تجربته إلى أسماء بعينها، للثائرين، وصناع الربيع العربي ـ بالفعل والكلمة ـ ، لذا يهدي التجربة إلى الأصابع والخناجر، وكل من رفض الأسر والتحجر وجمود الطغاة. يقول:

«إلى حمزة الخطيب
وإبراهيم قاشوش
وإلى كل الأصابع والحناجر العربية
التي شكلت ربيعنا العربي الذي
قال: لا»

وهكذا استطاع بعض شعراء الباحة أن يوظف عتبة الإهداء لأكثر من دلالة؛ فقد أبرزوا عمق التجربة الشعرية وأوضحوا مسارها، وساهموا ـ من خلال الإهداءات السابقة ـ في إبراز أثر الوضعية العربية الراهنة في كيان التجربة الشعرية بدءًا من عتباتها بما يجعل من هذه الإهداءات ـ ومثيلاتها ممّا لم يتسن لنا قراءته ـ شهادة على الواقع العربي، وشهادة على مسار التجربة الشعرية للشاعر.

(1) د. صالح سعيد الزهراني: ديوان «**اللحنُ الأخيرُ على شفة المُغنّي**». الأعمال الشعرية ص 321.

obeikandl.com

obeikandl.com